ظاهرة الإعراب في نظر المستشرقين

د. منى محمد محمود سلمان

كلية الآداب ــ جامعة حلوان

توطـــئـــــة:

"استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميين في معالجة التعبير عن أدق خلجات الفكر سواء كان ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها. واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفردت بتفردها في طرق التعبير العلمي و الفني والصوفي" (لويس ماسينون) (١)

مـقـدمـــــة :

كان ولم يزل الشرق والغرب مرآة ذات وجهين، ينظر كل منهما فيها بحثًا عن الذات والآخر، فالتراث الإنساني وحوار الحضارات بين تلك القوتين سلسلة مترابطة لا تنفك عراها تؤثر وتتأثر ويبقى لكل منهما طابعه الخاص وسماته التي تميزه عن غيره، فظهرت المحاولات الجادة من الغرب لفهم الشرق، وبرع العديد من علماء الغرب في الاستشراق.

جاءت لفظتا شرق ومستشرق مقابلتان للفظة الفرنسية(orient) و(orientaliste) لوصف أهل الشرق، و(orientalisant) لوصف كل متأثر بالشرق أما الاستشراق فيعبَّر عنها بلفظة (orientalism) والتي تعني أيضا حبّ كل ما هو شرقي، أما العالم باللغات والآداب الشرقية هو (orientalist) (٢)

وعُرف مفهوم الاستشراق في الاصطلاح بالتدقيق والتبحر في تاريخ الشرق يقول أحمد حسن الزيّات هو:" دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته، وآدابه، وعلومه، وعاداته،

(١) الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، ص٣٠١

(٢) المنهل، سهيل إدريس، ص٨٥٠.

ومعتقداته، وأساطيره"(١) وثمة مفهوم متطور للاستشراق أكثر عمومية وشمولية بِعَدِّه طريقة للتفكير ترتكز على "التمييز الانطولوجي والإبستمولوجي بين الشرق orient والغرب occident"(٢)

فالاستشراق هو التخصص في فروع المعرفة المتصلة بالشرق مما كان له دور في تعميق الصلة بين علماء الاستشراق والعلماء العرب من جهة، وتوثيق الصلة بين المناهج الغربية والمناهج الشرقية، والدفع بحركة الترجمة وتحقيق التراث العربي، وإعداد المؤلفات المعجمية والموسوعية.

وثمة دوافع كامنة وراء هذه الظاهرة حضارية، وسياسية، واقتصادية، لاهوتية(تبشيرية)، وعلمية، وثقافية، واستعمارية.(٣) ولهذه الدوافع المتباينة أثر جلي في المناهج التي يسلكها المستشرقون لدراسة اللغات عامة، واللغة العربية خاصة، فهم ينطلقون في الغالب من المناهج التي تدرس بها لغاتهم، أو من خلال تأثرهم بها. (٤)

فكما شكَّلت الدراسات الاستشراقية الوعي اللغوي الغربي ورسمت ملامحه كذلك أثَّرت على الدرس اللغوي العربي على يد هؤلاء العرب الذين تتلمذوا على أيدي الأساتذة المستشرقين فأضافوا، وحذفوا، وقلَّدوا، ووضعوا البدائل التي يرونها ملائمة لروح عصرهم.

ومن ثمَّ يرصد البحث بعض آراء المستشرقين المتعلقة بظاهرة من أخص الظواهر اللغوية في العربية وأميزها عُرفت بظاهرة (الإعراب) التي أولاها النحاة عناية لم تعط لباب من أبواب النحو العربي حتى أصبح النحو عندهم (علم الإعراب). وقد انقسموا إلى مشكك فيها ومؤيد لأصالتها وجدواها، ومن هنا جاء البحث على ثلاثة محاور:-

(١) تاريخ الأدب العربي،ص٣٧٨.

(٢) بحث بعنوان " الاستشراق والمستشرقون"، د. أحمد أبو زيد، مجلة عالم الفكر، ص ٢٥٧.

(٣) ينظر: الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفي السباعي، ص ٢٠ وما بعدها، والمستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة، ص٢١ وما بعدها.

(٤) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة، ص ١٥.

يختص المحور الأول: بدراسة العلاقة بين الإعراب والقرآن والنحو.

ويتناول المحور الثاني: دعاوى التشكيك في أصالة الإعراب.

أما المحور الثالث فيدور حول: المثبتون لأصالة الإعراب.

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

المحور الأول:ـ العلاقة بين الإعراب والقرآن والنحو

هبة منحها الله ـ تعالى ـ للغة العرب، وكرامة أكرمهم بها، بجعلها لسان آخر الرسالات البشرية، ومعجزة تتضاءل أمامها مفخرة الأمم والحضارات، بها نزل الوحي على سيدنا محمد ρ، قال جلَّ شأنه" إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "(١) ونعت اللسان العربي بالوضوح والبيان بقوله تعالى:"لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلحِدُونَ إِلَيهِ أَعجَمِىّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىّ مُّبِينٌ "(٢)، وتعهَّد المولى ـ عزَّ وجل ـ بقوله:" إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا ٱلذِّكرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ "(٣) وهي بذلك تخالف قوانين الطبيعة من الفناء.

فنزل القرآن بلغة العرب التي كان بها ينظمون الشعر والخطب قبل الإسلام، ووصفها بروكلمان" بالنهر تصب فيه الجداول من شتَّى القبائل حتى بهر ثراؤها علماء اللغة ومؤلفي المعاجم وصار هذا البدوي القوي الملاحظة قادرًا على أن يصوّر بلغته كل دقائق الحياة الصحراوية والصفات والحيوان إلى غير ذلك من الأمور.. فضلا عن روعتها الشعرية الفتَّانة.(٤)

(١) سورة الزخرف، رقم الآية (٣).

(٢) سورة النحل، رقم الآية (١٠٣).

(٣) سورة الحجر، رقم الآية (٩).

(٤) ينظر: الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي،ص ٢٩.

ولهذا الارتباط القوي بين العربية والقرآن تحت مظلة الإسلام دور في البقاء والخلود، فقد حفظ القرآن لغة التفاهم بالعربية بين الشعوب الإسلامية الممتدة شرقا وغربًا والشعوب العربية وسيظل سفير العربية إلى مختلف الشعوب لآخر الزمان.

وبفضل امتداد رقعة الإسلام شقت اللغة العربية طريقها إلى الآفاق يقول سير دنسون ردس:" إن أثر اللغة العربية في تلك الممالك التي تتكلم لغات أخرى لا يقوم على أنها واسطة لفهم العقائد وإقامة الشعائر الدينية بل لأنها عامل منتج في الثقافة العامة، وليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الأصلية للكتب المقدسة بذلك الشأن الخطر كما هو في الإسلام." (١) ويرجع هذا في أساسه إلى ما تحظى به العربية من السحر وروعة البيان وحسن التعبير والأداء، فهي لغة: معبرة، شاعرة، معجزة،..."(٢)

إن انتشار أي لغة ما، واختلاطها بالأعاجم، وكثرة مستعمليها سلاح ذو حدين يحمل في طرفه مزية لثباتها، وأخرى خوفًا عليها، فقد تعرّضت اللغة العربية بعد اتساع الفتوح الإسلامية إلى نفس الأزمة التي تعرضت لها اللغة السريانية في خلال القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد في ظهور لغات أخرى في ميدان البحث والكتابة، وانتشار اللحن بين الناطقين، والخوف من أن يمتد هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس.(٣)

وقد أشارت المصادر التاريخية لكثير من الروايات التي تتضمن وقوع الخطأ في الكلام العادي، أو الشعر قبل الإسلام وبعده، منها: "ما روي أنَّ النبي - ρ - سمع رجلا يلحن في كلامه فقال:"أرشدوا أخاكم فقد ضلَّ"(٤) ومع أننا لم نعرف نوعية هذا الضلال أو الخطأ، هل كان في الإعراب أو في نطق الحروف أو في استعمال الكلمات. إلا أنَّه مما يلفت الانتباه

(١) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٢) ينظر: الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، ص ٧ وما بعدها، دفاع عن القرآن الكريم،د. محمد حسن جبل، ص٥٨، ٩٥، عبقرية اللغة العربية، محمد عبد الشافي القوصي، ص٧٣ وما بعدها..

(٣) ينظر: اللغة والنحو، حسن عون، ص ٤٩- ٥٠

(٤) الخصائص، ابن جني،٢/١٠

في هذه الروايات ظهور مصطلح يستخدم للدلالة على الخطأ والخروج عن المألوف في طريقة العرب عُرف عند النحاة واللغويين باسم " اللحن".

أجل، هو اللحن - بسكون الحاء - قال ابن الأثير: اللحن: الميل عن جهة الاستقامة وقيل بالتحريك بمعنى: الفطنة، واللغة. روي عن عمر - τ -:" تعلموا الفرائض والسنة واللحن أي اللغة، وقد ضمَّن له ابن بري وغيره ستة معان: الخطأ في الإعراب، واللغة،والغناء، والفطنة، والتعريض، والمعنى. (١)

إن ظهور مصطلح اللحن بمعنى الخطأ في اللغة يعود إلى عهد الرسول - ρ - يقول ρ:" أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنَّى لي اللحن"(٢) ويقول بعض السلف:" ربما دعوت فلحنت فأخاف ألا يُستجاب لي"(٣) وقد ظهر اللحن في صور ثلاث:

الأولى: اللحن الصوتي: وغالبا ما ينسب إلى أشخاص لم ينشأوا نشأة عربية بل اختلطت لغتهم الأولى بلغة أخرى تختلف عن العربية في أصواتها على نحو ما روي عن صُهيب بن سنان النمري الرومي من أنَّه كان يقول:إنك لهائن، يريد إنك لحائن.(٤) وقد تنبَّه الجاحظ إلى ذلك عندما حكى أنَّ السندي أو النبطي الذي يجلب كبيرا إلى بلاد العرب يصعب عليه نطق بعض الحروف، ولو بقي بأرض العرب خمسين عامًا."(٥)

الثانية: اللحن الصرفي: وينتج عن الخطأ في النطق بالصيغ مع صحة موضوعها الدلالي والجهل باستخدام الصيغ في مواقعها الدلالية مع سلامة النطق بها صوتيًا، منها ما روي عن

(١) ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة (لحن).

(٢) مراتب النحويين، لأبي الطيب، ص ٦.

(٣) الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ص ٩٦.

(٤) ينظر البيان والتبيين، الجاحظ، ٧٢/١، والحائن: الهالِك من الحين وهو الهلاك .

(٥) المصدر السابق، ٧٠/١.

الحسن البصري من أنه كان يقول:" توضيت" يريد: توضأت.وقول شيب بن شيبة: لابتيها، مريدًا البصرة ولا يقال ذلك إلا للمدينة والكوفة. (١)

الثالثة: اللحن المعنوي: وينشأ عن فساد الإعراب وهو أشد خطرًا لما يؤديه من غموض قصد المتكلم ولبسه أو إيراد معنى غير لائق بالمقام، وأعظم هذا اللحن حين يرد في كتاب الله. روي عن الحجاج بن يوسف أنه كان يسأل يحيى بن يعمر" أتجدني ألحن؟ قال الأمير أفصح من ذلك: قال: عزمت عليك لتخبرني... فقال يحيى بن يعمر: نعم في كتاب الله، قال: ذاك أشنع له، ففي أي شيء من كتاب الله؟ قال: قرأت"قُل إن كَانَ ءَابَآؤُكُم وَأَبنَآؤُكُم وَإِخوَٰنُكُم وَأَزوَٰجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأَموَٰلٌ ٱقتَرَفتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرضَونَهَآ أَحَبَّ إِلَيكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ" (٢) فترفع أحب وهو منصوب." (٣)

ولعل ظهور اللحن المعنوي كان مدعاة لنشوء ظاهرة الإعراب وارتباطها بعلم العربية وهو مصطلح أطلق على النحو عند العرب منذ نشأته، يقول أبو النضر: " كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية"(٤) بمعنى العلم والقواعد الأولية فلا يعقل أن يقصد بها اللغة من ألفاظ وأصوات. قال الربعي: وشيخنا أثير الدين أبو حيَّان كان يرى أن علم العربية وعلم النحو مترادفان ورأيته يستدل على ذلك يقول سيبويه في الكتاب:" هذا علم ما الكلم من العربية"(٥) كما قرن ابن فارس علم العربية بالإعراب.(٦)

وذكر السيوطي رواية عن عمر بن الخطاب ـ τ ـ أنه استعمل كلمة الإعراب بمعنى النحو عندما قال:" ولْيُعَلِّم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب" أي فليعلمهم انتحاء سبيل العرب

(١) ينظر: الظواهر اللغوية في التراث النحوي، د.علي أبو المكارم، ص ٦٣، ٦٤.

(٢) سورة التوبة، رقم الآية (٢٤) .

(٣) ينظر: أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص ٢١.

(٤) أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص ٢٢.

(٥) ينظر: المصطلح النحوي، عوض حمد القوزي، ص ٨، ٩

(٦) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية،ص ٥٥

في الكلام والإبانة، قال مالك بن أنس:" الإعراب حلي اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حُلِّيها" (١)، وصرَّح الزجاجي بتبادل اللفظتين لمفهوم واحد بقوله" ويُسمَّى النحو إعرابا، والإعراب نحوًا سماعًا." (٢) والسبب كما ذكر الزبيدي: "والإعراب الذي هو النحو إنما هو الإبانة عن المعاني..."(٣)

ونخلص بنتيجة مفادها أنَّ: اللحن وعلم العربية وعلم النحو والإعراب مفاهيم نشأت مترادفة لمعنى واحد هو: التقعيد والتقنين أي رسم قوانين وطرق العرب في التعبير والإفهام بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، كلية أو جزئية بقصد الحفاظ على لغة العرب.

يقول شيخ العربية ابن جني:" النحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية، والجمع، والتحقير والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك؛ ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإنَّ شذَّ بعضهم عنها رُدَّ إليها." (٤)

فالنحو هو المصباح المنير يهتدي به كل من أراد أن يتعلَّم لغة القرآن، ويتقنها على وجهيها:

١- الصرفي: كالتثنية، والجمع، والتحقير (التصغير)، والتكسير، والنسب...

٢- النحوي: كالإعراب، والإضافة، والتركيب...

وهذان الوجهان: الصرف " morphology " والتركيب " syntexe " يدخلان في الدراسات اللغوية الحديثة تحت مُسمَّى علم النحو" Gramar "(٥) إذن فالإعراب بعض من كل، نبت وترعرع في أحضان علم النحو غايته التفريق بين المعاني المتكافئة والتي ظهر فيها اللحن جليًا كما مرَّ آنفًا. عرَّف النحاة الإعراب اصطلاحًا بطريقتين:

(١) ينظر: المصطلح النحوي، د.عوض حمد القوزي، ص ١٤.

(٢) الإيضاح في علل النحو، ص ٩١.

(٣) تاج العروس، مادة (عرب).

(٤) الخصائص، ٣٤/١.

(٥) ينظر: دراسات في علم اللغة، د.كمال بشر، القسم الأول، ص ٢٨.

الأولى: نظرية العامل.

حدَّ الأنباري الإعراب بقوله:" اختلاف أواخر الكلم باختلاف العوامل لفظا أو تقديرا"(١) وهو مَعنِيٌّ هنا بتحديد مضمون الإعراب أي عملية التغيير ذاتها. أمَّا ابن هشام فيرى أنَّ الإعراب هو الحركات نفسها فيعرِّفه بقوله:" أثر ظاهر، أو مقدر، يجلبه العامل في آخر الكلمة، فالظاهر كالذي في آخر" زيد" في قولك: جاء زيدٌ، ورأيت زيدًا، ومررت بزيدٍ، والمقدر كالذي في آخر" الفتى" في قولك: جاء الفتى، ورأيت الفتى، ومررت بالفتى، فإنك تُقدر الضمة في الأول، والفتحة في الثاني، والكسرة في الثالث لتعذر الحركة فيها، وذلك المقدر هو الإعراب." (٢) تحرزًا من تلك الحركات التي تكون في آخر اللفظ وليست بإعراب كحركة البناء وحركة الاتباع...

الثانية: بالنظر إلى وظيفته.

يقول ابن فارس:" فالإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أنَّ القائل إذا قال ما أحسن زيد لم يفرق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب."(٣) وسواء أكانت المعاني إنشائية كالمدح والذم والأمر والدعاء والتعجب والاستفهام أم أنها تتعلق بالمعاني الوظيفية من فاعلية أو مفعولية أو إضافة" فلولا الإعراب ما وقع الفرق بين المعاني ولا عُرِف الفاعل من مفعول."(٤)

وذهب ابن جني إلى التفصيل في القول عن الإعراب" هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه، وشكر سعيد أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجًا واحد لاستبهم أحدهما من صاحبه." (٥) ولم يقف

(١) أسرار العربية، ص ١١٩.

(٢) شرح قطر الندى وبلّ الصدى، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، ص ٤٥.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٥٥.

(٤) شرح عيون الإعراب، المحاشعي، ص ٥١.

(٥) الخصائص، ٣٦/١.

عند حد الألفاظ بل ذكر أشكالا أخرى للإبانة ومما يقوم مقام الحركات الإعرابية نحو:" أكل يحيى كمثرى" لك أن تُقدِّم وأن تؤخر كيف شئت... وكذلك إن وضح العرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرف، نحو قولك: أكرم التحيّان البُشْرتيْن"... وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس، فقلت: كلَّم هذا فلم يجبه لجعلت الفاعل والمفعول أيُّهما شئت لأنه في الحال بيانًا لما تعني..."(١) لفتة ذكية من العلامة اللغوي ابن جني بربطه الإعراب بالمعنى وكأنه يصف اللغة أثناء الاستعمال(Use) وهي مما تُدرجها الدراسات اللغوية الحديثة تحت مُسمى التداولية Pragmatics .

المحور الثاني: دعاوى التشكيك في أصالة الإعراب

تعددت المناهج وتباينت الغايات وتفاوتت الآراء في أصل الإعراب عند المستشرقين وتبعهم الباحثون العرب المحدثون فانقسموا إلى فريقين لكل منهما أدلته وحجته:

الأول: المشككون في أصالة الإعراب.

الثاني: المثبتون لأصالة الإعراب.

ثمة دعاوى أقامها المستشرقون للتشكيك وإنكار ظاهرة الإعراب في اللغة العربية متأثرين بتلك المناهج التي اعتمدوا عليها في دراستهم للغتهم، فالمستشرق ابن بيئته وعصره مرتبط أيمًا ارتباط بما حوله من حركات علمية وفكرية في بلده.

ومن المعلوم في تاريخ الدراسات اللغوية الأوروبية أنَّ الدراسات التاريخية المقارنة بين اللغات المختلفة ازدهرت بشكل ملحوظ في القرن الثامن عشر، ومع أواخر القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر بدأ علم اللغة يرسم معالمه وتتضح مناهجه فكان من أوضحها: المنهج التاريخي، والتاريخي المقارن، والوصفي، والإحصائي، حتى استوت على عودها في

(١) ينظر: المصدر السابق، ٣٦/١.

القرن العشرين، وقد انتفع بها المستشرقون على الهدي الذي طُبقت عليه في لغاتهم الأصلية.(١)

ولعلَّهم آثروا في عرض العربية بطريقتهم المعروفة في بلدهم لسببين:

١- إزالة غرابة العربية عند المتلقي.

٢- التقريب والإفهام للغة لم يألفوها.

فأقاموا الدعاوي والأدلة لإنكار أو تأكيد بعض خواص اللغة العربية وأبرز ظواهرها اللغوية ألا وهي"الإعراب".

أولا:. التشكيك في أصالة الإعراب

سلكت دعاوى تفنيد ظاهرة الإعراب طرائق قددا:

الأولى: التفريق بين الفصحى واللهجات.

يرى كارل فولرز Karl vollers في كتابه" اللغة الشعبية واللغة الأدبية في الجزيرة العربية القديمة أن:" النَّص الأصلي للقرآن، قد كتب بإحدى اللهجات الشعبية، التي كانت سائدة في الحجاز، والتي لا يوجد فيها كما لا يوجد في غيرها تلك النهايات المسمَّاة بالإعراب، وأنه انتقل إلى هذا النص فيما بعد، الشكل الأدبي للغة العربية، الذي هو عليه الآن. وهو يرى أن العربية الفصحى، التي رواها لنا النحويون العرب، والتي توجد في القرآن، كما احتفظ بها الشعر في موازينه.. مصنوعة، وهو ينكر على الإطلاق أن تكون هذه اللغة، كانت حية في مكة، على عهد النبي محمد (صلى) ، كما يشك أن يكون البدو الذين خرج من بينهم الشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة." (٢)

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة، ص ١٥، ١٦.

(٢) فصول في فقه العربية، د.رمضان عبد التواب،٣٧٧ - ٣٧٨

ولم يذهب فولرز إلى هذا الحد من التفكير بالنسبة للعربية ولكنه كان يرى أن اللغويين العرب قد جمعوا عناصر الإعراب بمهارة فائقة وأكملوها.

بنى فولرز رأيه على ظن وافتراض من لدنه قوامه تصوُّر أنَّ القرآن كان في أول الأمر خاليًا من الضبط الإعرابي وكذلك الشعر، ويستنكر أن تكون العربية الفصحى أو الكلاسيكية" الأولى" قد خرجت بهذا الكمال، وبالغ بوصفها لغة (مصنوعة) منتحلة بمعنى أنَّ الشعر الجاهلي لم يكن على هذا الاتزان الذي عرفناه به، ولم يكن مقيَّدًا بالضبط الإعرابي بل ربما تعرضت ألفاظه وعباراته للتغيير. وقد غفل فولرز كون الضبط الإعرابي أحد الروافد الأساسية للقواعد الإعرابية التي وضعها النحاة بدءً من أبي الأسود الدؤلي (٦٩هـ) حتى سيبويه (١٨٠هـ) إذ كانوا يستنبطون تلك القواعد من استقراء الضوابط الإعرابية الملتزمة في الشعر وفي القرآن الكريم وفي كلام العرب. (١)

إذا افترضنا اتباع فولرز للنظرية الداروينية لتطور الأحياء، ومثلها اللغة التي تنمو من لهجات شعبية مختلفة فلا تزال في تطورها شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى مرحلة النضج والتقعيد على أيدي المثقفين والعلماء، فنتساءل هل لديه نصوص أو وثائق تؤكد انتحال لغة القرآن والشعر الجاهلي أو أنهما قد نطق بهما دون إعراب، وهل من الممكن أن تضيع جميع الروايات الخاصة بذلك دون أن يبقى لها آثار منها. نسي فولرز أنَّ اللغة اكتساب، تقليد ومحاكاة في مراحلها الأولى مطلب شعبي يُجمع أهلها عليها ومع النضج العقلي يكون التقعيد وشأنه من التشعيب والدقة في التفكير والملاحظة لعناصر الجملة والتركيب المنطوق.

وثمة مسألة تزيدنا عجبا لما فيها من التجرد العلمي للغة القرآن: فهو كلام الله المنزَّل على محمد (صلى) بلفظه ومعناه فلا يمكن التصور بحال من الأحوال أن تمسَّه يد قال

(١) ينظر: دفاع عن القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل، ص ١٦. وقد كفانا فيه مؤنة الرد على هذا الادعاء بذكر الشواهد التطبيقية لإثبات أصالة الإعراب في القرآن الكريم.

تعالى:" إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا ٱلذِّكرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ "(١) فأنَّى لهم مجرد التخيُّل لدخول أي تغيير في النص القرآني، فهناك فرق كبير بين هذا النص المقدس والنصوص الدينية الأخرى.

وإن كانوا لا يؤمنون بما نحن به مؤمنون، فلنَعْمَد إلى مصادر التأريخ لنشأة النحو ونتأمل قصة الإعرابي الذي وفد من البادية فأقرأه أحدهم:"وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَومَ ٱلحَجِّ ٱلأَكبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلمُشرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ "(٢) بجر كلمة " رسوله" الأخيرة فقال الإعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الإعرابي، فدعاه، فقال: يا إعرابي أتبرأ من رسول الله ؟ فقال: يا أمير المؤمنين: أنّي قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة (براءة) فقال: " أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلمُشرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ " فقلت: أو قد برئ الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريئا من رسوله فأنا أبرأ منه. فقال عمر: ليس هكذا يا إعرابي. فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال:" أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌمِّنَ ٱلمُشرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ " فقال الإعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برأ الله ورسولُه منهم، فأمر عمر ـ رضي الله عنه ـ أن لا يُقْرِئ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يصنع النحو."(٣) فهل بعد هذا نُصدِّق إنكار أن تكون العربية الفصحى حيّة في مكة على عهد الرسول ρ ـ ونشك في حديث البدو بهذه اللغة؟!

ومثله باول كاله Paule kahle في فصل من كتابه" الذخائر القاهرية بعنوان: نص القرآن العربي" يَفْصِل فيه بين العربية الفصحى واللهجات، فيرى أنَّ العرب قد تعودوا أن يعدوا اللغة البدوية نموذجًا للنطق الصحيح فنظموا الشعر العربي الجاهلي بها، وكان كل عربي مزهوًا بذلك وسعوا لتلاوة كتابهم باللغة التي ابتدعها النحويون وسمَّاها ب " العربية النموذجية" والتي جُمِعَت من البدو في أشعارهم وبقيت كتابة المصحف بدون تغيير. بل

(١) سورة الحجر، رقم الآية (٩).

(٢) سورة التوبة،الآية (٣)

(٣) ينظر: ظاهرة الإعراب في النحو، د. أحمد سليمان ياقوت، ص ١٧.

ابتدعت طريقة، تضاف فيها علامات مختلفة إلى النص، لضمان صحة القرآن(١) هذا جهل باللغة وتاريخها وعلوم القرآن ألم يقرأ تحدِّي المولَى عز وجل لأهل الفصاحة وأرباب القول بقوله" قُل فَأتُواْ بِعَشرِ سُوَرٍ مِّثلِهِۦ مُفتَرَيَٰتٖ"(٢)، وخفَّف عنهم الأمر بسورة قال تعالى:" قُل فَأتُواْ بِسُورَةٖ مِّثلِهِۦ "(٣)

وباءت محاولاتهم بالفشل الذريع. فضلا عن تلك الروايات التي كشفت عن إدراكهم بحسهم اللغوي الفنِّي لما يقع من أخطاء ومخالفات لغوية أثناء تلاوة الآيات فهبُّوا لوضع مقاييس التصحيح وفقا لما سمعوه عن رسول الله فالقرآن أُخِذ شفاهة ولسلامة النقل حدد المصطفي حفاظه ورواته، روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت النبى يقول:" خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأُبي بن كعب "(٤) وأمر بنسخه دون غيره بقوله:" لا تكتبوا عنِّى شيئا غير القرآن"(٥) فكُتب على الرقاع والأديم وبعد وفاته جمع في عهد أبي بكر ثم نُسِخ في عهد عثمان ووزِّع أكثرها على الأمصار ليقرءوا عليه ويكتبوا منه(٦) ولم تحدث بعدها أية تغيرات التزامًا برسم المصحف العثماني .

ومن المشككين كذلك فتشتاين Wetzstein كان يرى هو أيضا أن لغة الشعر مصنوعة تمامًا لإنكار الضوابط الإعرابية، ويعلل هذا بأنَّه " قد درس العربية الحديثة وتأثر بها إلى درجة أنه أصبح يرى أن القواعد التي يُطالب بها من يريد التحدث بالعربية الفصحى عديمة الجدوى".(٧)

(١) ينظر: فصول في فقه العربية، د/ رمضان عبد التواب، ص ٣٧٨.

(٢) سورة هود رقم الآية (١٣).

(٣) سورة يونس رقم الآية (٣٨).

(٤) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، النوع العشرون،١/١٥٤، وقد ورد الحديث في صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، باب مناقب أبي بن كعب، رقم الحديث (٣٨٠٨) ٥/٣٦.

(٥) ينظر: المصدر السابق، النوع الثامن عشر،١/١٢٦، وقد ورد الحديث في صحيح مسلم،مسلم بن الحجاج، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، رقم الحديث (٣٠٠٤)، ٤/٢٢٩٨.

(٦) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، النوع الثامن عشر،١/ ١٢٦ وما بعدها.

(٧) فصول في فقه العربية، د/ رمضان عبد التواب، ص ٣٨١.

فهلًا يستطيع أن يقرأ ويفهم ويتذوق الموروث اللغوي للعرب من أشعار وخُطَب والمؤلفات العلمية والعلوم الإسلامية وعلوم الكلام ... كلام باطل كالسُّم في العسل بقصد تقطيع أواصر العلاقات بين الماضي والحاضر بترك الفصحى وإحلال العامية.

الثانية : خلو اللهجات العامية الحالية من الإعراب

ذهب أصحاب هذا الرأي إلى تصور أن ظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة سليقة في متناول العرب جميعًا بل صفة من صفات اللغة النموذجية الأدبية، ولم تكن من معالم الكلام العربي في أحاديث الناس ولهجات خطابهم(١)، والدليل ذهاب اللغويين العرب إلى البدو ليدرسوا لغتهم بحثًا عما يفتقدونه في المدن من العربية الفصحى بيد أن شبتالر " يرى أن تلك العربية لا تساوى لغة التخاطب عند البدو، فإن اللغويين العرب لم يكترثوا بهذه اللغة الأخيرة، لأنهم كانوا يرمون إلى غرض آخر مختلف، فلقد كان الشيء الوحيد المستأثر بجهود اللغويين العرب دائما هو العربية الفصحى وإذا حدث هذا فلا عجب أن يجد اللغويون الإعراب عند البدو حقًّا ولكن أن يستخلص من ذلك أنه لا وجود للغة بلا إعراب عند البدو على الإطلاق فذلك أمر غير مقبول وحجة واهية."(٢) وهذا اعتراف ضمني بإقرار الإعراب في اللهجات العربية القديمة التي تعود إلى ما قبل التاريخ فهبنا ننظر ونتأمل لشاهد تاريخي سجَّله السيد مرتضى الزبيدي أن باليمن جبلا يُسمَّى عكادا أهله باقون على اللغة الفصيحة وأنهم لا يسمحون للغريب أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفًا على لسانهم.. (٣)

ولا تزال تلك الآثار الإعرابية في عاميتنا الحالية وإن كانت قليلة ففي مصر مثلا نسمع مما فيه علامة الرفع:" أبوك – أخوك ..." وفي السعودية والعراق ودول الخليج يشيع بين العامية استعمال بعض صيغ الأفعال الخمسة مرفوعة " يكتبون – تلعبون – تلعبين .. الخ . وبذلك

(١) من أسرار اللغة، د/ إبراهيم أنيس، ص ٢٠٣.

(٢) العربية، يوهان فك، تعليقات شبتالر، ص ٩، ١٠.

(٣) ينظر: الهامش،الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ٧/٢.

يتبيّن زيف ادعاء تجرد اللهجات العامية الحالية من كل أثر للإعراب وأنه لا اعتداد به لأنه مجرد ادعاء يخالف الواقع أيضًا(١).

الثالثة: علاقتها باللغات الأخرى.

ادَّعى منكروا الإعراب عدم وجود آثار للإعراب في اللغات السامية القديمة، وانفراد العربية دون أخواتها الساميات بالإعراب يعنى: أنَّه متكلَّف مصنوع لا أصل له(٢)وفنَّده بعض المستشرقين أمثال : يوهان فك ، نولدكه ، ولفينسون،...(٣)

الرابعة : ضعف العقلية العربية

يرى أصحاب هذا الرأي أن قواعد التصرف الإعرابى تفوق القدرات العقلية للعرب في عصورهم الأولى فهي تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التي ظهرت في العهود الإسلامية بالبصرة والكوفة وبغداد ومصر.(٤) وهذا يعنى أنَّها دخيلة على لغة العرب تأثروا في وضعها بمن يُحكِمُون الصنعة وفي هذا مجانية الصواب وفساد الرأي فضلا عن سترها للعنصرية التي ترى أن العرب جنس أقل في الاستعدادات العقلية من غيرهم .

ومن ثم اتهموا النحاة بخلق القواعد واختراعها يقول ماريو باي يصف جهود النحويين العرب:" فقد سنّوا القوانين النحوية ما شاء لهم هواهم ثُمَّ دأبوا على التقليل من شأن أي استخدام للغة فيه خروج عن قوانينهم واعتبروا أنه من باب الخطأ " لم نسمع عن اختراع قواعد اللغة في أي لغة من لغات العالم قديمها وحديثها، فمن المعلوم بداهة نشوء القواعد

(١) ينظر: فقه اللغة، د/ عبد الواحد وافي، ص ١٦٢.

(٢) ينظر: دفاع عن القرآن، د/ محمد حسن جبل، ص ٢٧.

(٣) ينظر: المحور الثالث الرد على الادعاء

(٤) ينظر: فقه اللغة، عبد الواحد وافي، ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

اللغوية تدريجيًا من الملاحظة والتدقيق بعد الجمع والتنقيح كالبذرة تنمو شيئا فشيئا، " فالنظام الذي سوَّاه علماء اللغة هو مشتق من رحم اللغة" (١)وليس مجرد اختراع أو ابتداع.

أما عن دقتها وتشعبها فما هي إلا مرحلة متطورة من النضج العقلي في التحليل والاستنتاج، وآكد على نبوغ العقلية العربية، فضلا عن حاجتها لتفصيل القاعدة في الإيضاح والتقريب للدرس التعليمي .

وقد نفى د/عبد الواحد وافي تصور تواطؤ جميع العلماء مع علماء القواعد على ألا يذكروا شيئا عن اختراعهم العجيب.(٢)

الخامسة : خلو الحركات الإعرابية من الدلالة

قال به د/ إبراهيم أنيس دليلا على إنكار ظاهرة الإعراب كلية فهو يراها قصة اصطنعها النحاة " استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ثم حبكت وتم نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثانى."(٣) وفسَّر خلو الحركات الإعرابية من المعانى بقوله: "لم تكن الحركات الإعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة بل لا تعدوا أن تكون حركات يحتاج اليها الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض وقد قرر بعض المتقدمين من ثقات العربية أن وظيفة الحركة الإعرابية لا تعدوا أن تكون لوصل الكلمات بعضها ببعض في الكلام المتصل لذلك جاز سقوطها في الوقف وجاز سقوطها في بعض المواضع من الشعر وإن اعتبروا هذا من باب الضرورات الشعرية." (٤)

ونخلص مما تقدم إن محاولات التشكيك في أصالة الإعراب لا تعدو سوى محاولات للخروج عن المألوف بدعوى البحث عن الجديد أو أنها محاولة لهدم العربية الفصحى لغة

(١) العربية والإعراب، د.عبد السلام المسدي، ص١٦٨.

(٢) ينظر: فقه اللغة، عبد الواحد وافي ، ص ١٦٣.

(٣) من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ص ١٩٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

القرآن وانتشار العامية وهم في ذلك متأثرون بثقافتهم فضلا عن إشارتها الضمنية لشيء من العنصرية والتحيُّز .

المحور الثالث : المثبتون لأصالة الإعراب

إن أقوال النحاة القدامى عن الإعراب تعد المصدر الأول لدعم وإقرارا ظاهرة الإعراب في العربية بينما جاء الباحثون المحدثون والمستشرقون ينظرون إليها نظرة مختلفة بسرد الأدلة والقرائن على وجودها من عدمه منذ القدم على مبدأ المقارنة التاريخية بين العربية و الساميات واللاتينية.

يقول المستشرق الألماني يوهان فك:" لقد احتفظت العربية الفصحى، في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية ـ باستثناء البابلية القديمة ـ قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي. وقد احتدم النزاع حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابي في لغة التخاطب الحي فأشعار عرب البادية ـ قبل الإسلام وفي عصوره الأولى ـ ترينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين العرب كانوا- حتى القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي على الأقل ـ يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم، تدل على أنَّ التصرف الإعرابي كان في أوج ازدهاره آنذاك. بل لا نزال حتى اليوم نجد في بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة، ظواهر الإعراب."(١) وفي هذا الكلام ردّ على أقوال المشككين السالفة الذكر من مستشرق مثلهم مستعينا بالمناهج نفسها التي استعملوها فعند التأمل في الموروث اللغوي تظهر علامات الإعراب بوضوح مطردة كاملة السلطان والآكد على هذا من جهة بقاء الشعر على أوزانه التي لا تترك مجالا للشك في إعراب كلماته وكذلك حرية الحركة في بناء جمل القرآن نحو: قوله تعالى:"إِنَّمَا يَخشَى ٱللَّهَ مِن عِبَادِهِ ٱلعُلَمَٰٓؤُاْ "(٢)، وقال تعالى:" أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ

(١) العربية، يوهان فك، ص١٥.

(٢) سورة فاطر، رقم الآية (٢٨)

ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ "(١)، وقال تعالى:" وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ "(٢)، وقال تعالى:" وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ "(٣)، فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فها حيًّا صحيحًا. (٤) إشارة ذكية ولمحة من عالم مدقق ذي ذائقة لغوية مرهفة.

وهذا الرأي كتبه العالم رايت Wright في محاضراته(مقارنة نحو اللغات السامية) فسمَّى الحركات الإعرابية لواحق فيقول:" أصل لواحق الإعراب لا تعرف معرفة يقين، ولكن يمكن أن يرى أن الفتحة أصلها ha وهى ضمير إشارة مستعمل في اللغات السامية، ولم يزل في الحبشية يلحق بالأعلام في حالة النصب إذا وقع عليها فعل ذو اتجاه مثل : أقبل وقصد به وأصل معنها في هذا الاستعمال الاتجاه إلى شيء أو شخص معيَّن . وإذا صح هذا جاز أن نرى الضمة مشتقه من ho أى هو. أما علامة الجر فظاهرها مشابهتها بياء النسب وهى تفيد الكلمة معنى الوصفية " (٥)

وذهب أبو ذؤيب ولفنسون إلى التأكيد على وجود بقايا الإعراب في أغلب اللغات السامية ففي العبرية كحرف nx للمفعول به.. والبابلية كلمة SUT لتعيين ضمير التبعية(٦) وكذلك العربية والسبب يعود إلى عدم وجود أثر لإدغام كلمة في أخرى حتى تصير الاثنتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلمتين مستقلتين كما هو الحال في اللغات غير السامية. (٧)

(١) سورة التوبة، رقم الآية(٣)

(٢) سورة البقرة، رقم الآية (١٢٤)

(٣) سورة النساء، رقم الآية (٨).

(٤) ينظر العربية، يوهان فك، ص١٥.

(٥) إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، ص ٤٣، ٤٤.

(٦) ينظر: تاريخ اللغات السامية، ص ١٥.

(٧) ينظر المصدر السابق، ص١٥.

كما عقد كارل بروكلمان ضمن كتابه " فقه اللغات السامية مبحثا يُفصّل فيه حالات الإعراب ــ الرفع والنصب والجر ــ في اللغة السامية الأولى والتي يفترض أنها كانت تملك في المفرد حالات إعرابية راقية نوعا ما. وانتقلت كذلك إلى الجمع والمثنى أما تلك الفروق التي توجد في الجمع بين حالة الرفع وحالتي النصب والجر فلم تظهر إلا في العربية القديمة والبابلية. وثمة بقايا إعرابية في الحبشية و العبرية والآرامية والأكاديَّة والآشورية ولم تصمد سوى اللغة العربية منذ القدم، (١) يقول:" وقد احتفظت اللغة العربية القديمة بحالات الإعراب الثلاث الرئيسية سالمة، غير أنَّ الحركات قد قصّرت، ولا تحتفظ بطولها إلا في الوقف والقافية أحيانا، وقد بقيت طويلة دائما، في كلمات القرابة في حالة الإضافة: أَبْ وأَخْ و حم ، تلك الكلمات التي يعوض فيها سقوط لام الكلمة بهذا الطول للحركة." (٢)

ويعلل ترك بعض حالات الإعراب في اللهجات الحديثة لأسباب صوتية ، وبقى بعضها الآخر تحت حماية الضمائر المتصلة. (٣)

وقد أكد برجشتراسر على أصالة الإعراب في السامية بقوله:" والإعراب سامي الأصل تشترك فيه اللغة الأكدية، وفي بعضه الحبشية ونجد آثارًا منه في غيرها أيضا."(٤) كما عُثِر على وجود حالات الإعراب في اللغة الأوجاريتية وهي إحدى اللغات السامية... (٥)

ولم يكن الحكم بتاريخ اللغات ضرب خيال بل ضرب كفاح ومثابرة في الكشف والتنقيب سنين طوال للوصول إلى الهدف، فثمة نقوش متفرقة هنا وهناك في شبه الجزيرة العربية وديار الشام وأرض العراق... اكتشفها الباحثون وحاولوا في ضوئها الكشف عن

(١) فقه اللغات السامية، كارل بروكلمان، ص١٠٠.

(٢) فقه اللغات السامية، كارل بروكلمان ، ص ١٠٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٤)التطور النحوي، ترجمة د/ رمضان عبد التواب، ص١١٦.

(٥) فصول في فقه العربية،د/ رمضان عبد التواب، ص ٣٨٤.

خصائص وسمات اللغات أو قل اللهجات المستعملة آنذاك وهي ما تسمَّى ب" عربية النقوش" أو " العربية البائدة" نظير العربية الباقية. (١)

نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر،قانون حمورابي(١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) المدون باللغة البابلية القديمة، يوجد فيه الإعراب كما هو في اللغة العربية الفصحى تماما، فالفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، وعلامة الرفع الضمة، وعلامة النصب الفتحة، وعلامة الجر الكسرة، ففي الفقرة الأولى من هذا القانون، نقرأ الجملة التالية summa awelum awelem ubbirma بمعنى: إذا اتهم إنسان إنسانا" ففي هذه الجملة نجد awelum الأولى بمعنى:" إنسان" في حالة الفاعل وهي مرفوعة بالضمة.أمّا الميم الأخيرة فهي في الأكادية تقابل التنوين في اللغة العربية، awelam الثانية في حالة المفعول، وهي منصوبة بالفتحة،..."(٢)

كشفت آراء المستشرقين السابقة عن علاقة الإعراب باللغات السامية، فهل للإعراب آثار في اللغة اللاتينية أو اليونانية ؟ ينفي فيتشخل وجود علاقة بين تفسير الحالات الإعرابية في السامية والهندوجرمانية ويعدُّه أمرًا " لا وجود له إلا في عالم الخيال" (٣) وتتبعه للصيغ الواردة في نقوش سبأ ومعين وجد أن الحركات الإعرابية في العربية على النحو الآتى:

(أ) ـُ = ضمة للرفع

ـِ = كسرة للجر

(ب) ـَ = فتحة للنصب (في حالة الإفراد)

ـِ = كسرة للنصب (في حالة الجمع)

(١)ينظر: فقه اللغة، د/ عبد الواحد وافي، ص ٧.وقد ذكر كثير من النقوش في كتابه ص٨٠، وظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، د/ أحمد سليمان ياقوت،ص٦ وما بعدها.

(٢)فصول في فقه العربية،د/ رمضان عبد التواب، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٣)بحث بعنوان" الإعراب في اللغة العربية"،أ/ فرنر فيتشخل،ترجمة د/ خليل محمود عساكر، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى،ع(١)، ١٤٠١هـ - ١٤٠٢هـ .

وهذا ينطبق على ما يوجد في الأكدية والأجريتية من الإعراب (١)

وهو ما ذهب إليه د / إبراهيم أنيس من نفي الوضع الإعرابي الذي يسمى ending - caee في اللغات اليونانية واللاتينية. (٢)

وبعد عرض آراء المستشرقين لأصالة الإعراب في ضوء علاقة العربية باللغات الأخرى خاصة السامية أكَّد على أنها موغلة في القدم، ضاربة بجذورها العتيقة في عمق التاريخ سواء أكانت العربية هي السامية الأم كما يراها د/سليمان ياقوت أم فرع عن أصل(٣) ولا يعنى هذا ضرورة التماثل التام بين اللغات السامية في ظاهرة الإعراب وإذا فقدت هذه اللغات تلك الظاهرة أو لم يبق منها إلا الآثار الضئيلة التي تدل على بدائيتها فليس ذلك دليلا على فقدان العربية لها، أو ينبغى أن تفقدها فلكل لغة ظروفها ... (٤)

ولسنا مع د / على أبو المكارم بتفرد العربية للإعراب وحدها دون غيرها من اللغات فما من لغة نشأت في غمضة عين(٥) دون مرورها بمراحل فيها تلاقي وتهجين مع غيرها سواء من فصيلتها أم لا ويؤكد قولنا ضياع كثير من الآثار اللغوية واندثارها لضرب جذورها في أعماق التاريخ ولما لا ؟ ألم يفطن الخليل في كتابه العين إلى العلاقة بين الكنعانية والعربية وكذا فطن ابن حزم الأندلسي إلى العلاقة بين العربية و السريانية والعبرية .. (٦) وبالبحث والتنقيب أُميط اللثام عن كثير من النقوش والآثار اللغوية القديمة. ومن ثَمَّ فأنه لا يُضير العربية من قريب أو بعيد الوصول إلى تماسها مع اللغات الأخرى فالبقاء للأقوى والأصلح .

(١)ينظر: الإعراب في اللغة العربية ، ص١٣٨.

(٢)ينظر: من أسرار اللغة، ص٢١٥.

(٣)ينظر: ظاهرة الإعراب في النحو،ص ٩.

(٤)ينظر: العلامة الإعرابية في الجملة، د/ محمد حماسة عبد اللطيف،ص ١٢٨.

(٥)ينظر: الظواهر اللغوية في التراث النحوي، ص٣٧.

(٦) فقه اللغة السامية، كارل بروكلمان، ص٦ مقدمة المترجم د/ رمضان عبد التواب.

الخـــاتمـــة

سجلت نتائج البحث كالآتي :-

كشف البحث عن خطورة مسلك بعض المستشرقين الذين أرادوا هدم النحو العربي عن طريق التشكيك في أخص خواص العربية ألا وهى " الإعراب " وزعمهم بخلق النحاة له من تلقاء أهوائهم ، في محاولة منهم لهدم العربية الفصحى وانتشار العامية.

توصلت الدراسة إلى اعتماد آراء من ذهبوا إلى عدم أصالة الإعراب في العربية منذ القدم على أدلة مبعثها : الافتراض و الحدس و الأخذ بالشبهة بقصد التجريح ، واتهام العقلية العربية بالقصور والضعف للإبداع الذاتي خاصة بعد أن شهد من بنى جلدتهم بنجاح العرب الأوائل في محاولات متعددة .

شهادات المستشرقين المثبتين لأصالة الإعراب لم تأت جزافا أو فرض خيال بل اعتمدت على دراسة تلك النقوش و الآثار المكتوبة والمبعثرة هنا وهناك .

كما ثبت إيمان بعض المستشرقين بدور القرآن في الإبقاء على العربية و الحفاظ عليها من الفناء و كأنه رجع صدى لمقولة سلفنا الأوائل " لولا القرآن لضاعت العربية ".

الحكم بوجود الإعراب في اللغات السامية قليلا أو كثيرا يكفي لتأصيل وجود الإعراب في العربية منذ القدم من باب التلاقح والتهجين بين اللغات ، فليست اللغة العربية بدعا من الأمر

إن دراسة الإعراب في ضوء المقارنة التاريخية كشف النقاب عن وجوده وأهميته وكنه مدلوله ضرورة النظر في الموروث اللغوي العربي بشكل جديد يمزج القديم بالحديث بمنهجية واضحة .

قائمة المصادر والمراجع

ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية، بيروت،د.ط، د.ت.

ـ إحياء النحو، إبراهيم مصطفي، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٣م.

- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، تحقيق طه محمد الزيني،ومحمد عبد المنعم خفاجي، شركة مكتبة مصطفي الحلبي، ط١، ١٩٥٥م.

- الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)،د/ مصطفي السباعي، دار العراق و المكتب الإسلامي،(د.ط)،(د.ت).

- أسرار العربية، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد أبي سعيد الأنباري، عُني بتحقيقه محمد بهجت البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق،١٩٥٧م.

- الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس،(د.ط)، (د.ت).

- البيان والتبيين،الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون،لجنة التأليف والترجمة، ط (١)، ١٣٦٩هـ.

- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني، تحقيق عبد العليم الطحاوي، مراجعة بهجت الأثري، وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط (٢)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيّات، دار نهضة مصر،الفجالة،(د.ط)،(د.ت).

- تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفنسون "أبو ذؤيب"، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط (١)، ١٩١٤م.

- التطور النحوي للغة العربية، المستشرق الألماني برجشتراسر،" محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية، ١٩٢٩م، أخرجه وصححه وعلق عليه د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، (٤)،٢٠٠٣م.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط(٤)، ١٩٩٩م.

- دفاع عن القرآن الكريم (أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية)، د/ محمد حسن حسن جبل،٢٠٠٠م.

- دراسات في علم اللغة، القسم الأول، د/ كمال بشر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

- شرح عيون الإعراب، أبو الحسن علي بن فضّال المجاشعي، حققه وعلق عليه د/ عبد الفتاح سليم، مكتبة الآداب، ط (٢)، ٢٠٠٥م.

- شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري،تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط(١١)، ١٩٦٣م.

- الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق السيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، يوليو ٢٠٠٣م.

- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة،الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، د/ أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م.

- الظواهر اللغوية في التراث النحوي، د/ علي أبو المكارم، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- عبقرية اللغة العربية، محمد عبد الشافي القوصي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - ايسيكو، ٢٠١٦م.

- العربية (دراسات في اللغة واللهجات والأساليب) يوهان فك، ترجمة وقدَّم له وعلَّق وصنع فهارسه د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي - مصر، ١٩٨٠.

- العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، د/ محمد حماسة عبد اللطيف، الكويت، ١٩٨٣م.

- الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٢م.

- فصول في فقه العربية، د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط(٣)، ١٩٩٤م.

- فقه اللغة، د/ عبد الواحد وافي، نهضة مصر، ط(٣)، ٢٠٠٤م.

- فقه اللغات السامية، المستشرق الألماني كارل بروكلمان، ترجمه عن الألمانية د/ رمضان عبد التواب، جامعة الرياض،١٩٧٧م.

- لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- اللغة والنحو (دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة)،د/ حسن عون، ط(١)،١٩٥٢م.

- مراتب النحويين، أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (ت/٣٠١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،(د.ط)،(د.ت).

- المستشرقون والمناهج اللغوية، د/ إسماعيل أحمد عمايرة، دار حنين، ط(٢)، ١٩٩٢م.

- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، د/ إسماعيل أحمد عمايرة، دار حنين، ط(٢)، ١٩٩٢م.

- المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عوض حمد القوزي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣م.

- من أسرار اللغة، د/إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية،ط(٥)، ١٩٧٥م.

- المنهل(قاموس فرنسي عربي)،سهيل إدريس، دار الكتاب،(د.ط)، ٢٠٠٤م.

المجلات العلمية:

- الاستشراق والمستشرقون، د. أحمد أبو زيد، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام ، الكويت ، ١٩٧٩م.

- الإعراب في اللغة العربية،أ/ فرنر فيتشخل Werner vycicl، ترجمة د/خليل محمود عساكر، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، العدد (١)، ١٤٠٢هـ .